غبار الدروب

قصة بقلم حسين قاسم

كان ذلك في « فندق فيرا كروز » بمدينة سانتو انجلو ، كنت جالسا في الصالة ، اكتب جوابا لرسالة وصلتني من اهلي . وفي زاوية الصالة لمحت ثلاثة اشخاص يتحدثون بهدوء ، وبصوت خافت ، عن اعمال التهريب في مدينة سان بورجا ، الواقعة على الحدود بين البرازيل والارجنتين.

اخذت كلماتهم تصل الى اذني خفيفة ، متقطعة ، واحدهم كان يتطلع حوله بحذر ، ويرمقني بطرف عينيه من حين الى اخر . كانت قبعته مربوطة فوق رأسه بشريط ازرق الى ما تحت ذقنه ، بينما ربط عنقه الضامر بمنديل احمر ، تدلى طرفاه حول صدره الاسمر ..

وفهمت من حديثهم ، ان هناك في سان بورجا ، البضاعة.. النايلون .. احجار القداحة .. كنزات الصوف ، واشياء كثيرة تباع باسعار رخيصة قد لا يتصورها العقل . وغرني الحديث ، ولما كنت اسمع الكثير عن اعمال التهريب ، قررت الذهاب الى مدينة سان بورجا .

الوقت خريف . وهواء الخريف يحمل معه بقية من حرارة الصيف، يمزجها في التراب ، ويرميها في وجوه الناس واعينهم ، فكنت اغطي وجهي وعيني بجريدة « بريد الشعب » كما كان يفعل اكثر المارة ..

سان بورجا ، مدينة تبعد قليلا عن نهر الارغواي ، وهو فاصل طبيعي بين البرازيل والارجنتين من ناحية الجنوب . كانت الحركة خفيفة ، على غير ما تصورتها ، وكانت عقارب الساعة تزحف ببطء الى الثانية عشرة ، واقدام المارة بدأت تخف من الطرقات .

لقد ندمت على تسرعي في المجيء الى هذه المدينة ، وخصوصا وانا ارى خفر الحدود يجوبون الشوارع ..

عدت ادراجي الى مكتب النقليات وقد ازمعت الرجوع الى مدينة سانتو انجلو . ولكنني من غير شعور ، وجدت نفسي اطلب تذكرة سفر الى مدينة تقع في الاراضي الارجنتينية ، كنت قد لمحت اسمها مكتوبا على الجدار ، مع اسماء عديدة لمدن مختلفة .. لقد وصلت الى حدود الارجنتين ، فما اقرب الى نفسي التجوال في بعض نواحيها..

سألني الموظف اذا كنت احمل حقيبة ، فأجبته انني لا احمل غير نفسي ، فابتسم ، وناولني بدل دراهمي تصريحا بزيارة المدينة ، مع ورقة صفراء ، قرأت فيها : من ـ سان بورجا ـ الى ـ سانت تومي ـ.

لم افكر وانا في طريقي الى سانت تومي ، اللهم الا في شيء واحد، وهو وجودي في مكان ناء ، بعيد كل البعد عن اهلي وبلادي.

ثلاث ساعات وسيارة الركاب تنوء بنا في طريقها الى الجنوب .. المروج ، والهضاب ، واخضرار الربى كلها لم تغرني . لقد كرهتها بعدما كرهت نفسي..

انني لم اجد في هذه الغربة الاحلام التي داعبت عقلي الصغير. حقيقة كنت ـ ولدا ـ عندما فكرت في الهجرة ، وها انذا لا اربح غير التشرد من مدينة الى اخرى ، اخجل من نفسي ، ومن ثيابي القذرة، ومن الحقيبة التي تلازمني كل يوم في تسكعي من شارع الى شارع ..

قلت : انني اخجل من نفسي .. لانني وعدت هذه النفس بالرفاهية، حدثتها عن المجد ، وعن المستقبل .. وهم ، عشته مخدرا قبل ان انزح الى ديار الغربة .

اما خجلي من ثيابي القذرة ، فلانني لا استطيع ان ابعث بها الى الغسالة كل يوم . انني لا اهدأ في مكان ، فكيف اضمن لنفسي نظافة ثيابي ؟.

واما الحقيبة ، فيكفي ان الشمس رمت عليها لونا قاتما ، اشبه ما يكون بوجهي ، هذا ان جاز التشبيه ، واعتبرت انه لا يزال في وجهي مسحة من رونق عتيق ..

ولقد حدث مرة ، اننا كنا نسير ـ انا وحقيبتي ـ في دروب قرية، وقد مضى نصف يومي دون ان اهتدي الى مشتر ، وكانت النتيجة، انني تسمرت عند اول بار ، بعدما عجزت رجلاي عن المشي.. فانحنيت امام بابه ، مسندا حقيبتي الى الحائط ، ثم سرت متهالكا الى احد المقاعد، كنت مخدرا دون مشروب ، انه التعب يمتزج مع الهم فيجري في عروق جسمي .. لو قلت ان باستطاعتي ساعتئذ التهام غذاء خمسة رجال دفعة واحدة ، فصدقني بذلك .. ولكنني اكتفيت بفنجان قهوة. محفظتي لا تسمح .. فنجان قهوة ، اخذت احتسيه بهدوء ، متطلعا الى وجوه الناس الملأى بالهموم ، وبغتة ، دخل علينا كلب ، يتلاعب بذيله .. لم يسترع انتباه احد غيري ، اذ تجمعني مع الكلاب حياة التشرد . رأيته يدور تحت موائد الجالسين ، فيلتقف ما تساقط من فتات الخبز، وفي عودته لمحته قد انعطف فجأة نحو حقيبتي ، فشم طرفيها ، ثم رفع رجله ... « لعنه الله » ، جعل الجالسين كلهم يغرقون في الضحك وهم يشيرون الى حقيبتي ، والى الماء الذي لطخ احدى زواياها ..

تذكرت كل هذا قبل ان اصل الى سانت تومي . انا اليوم لا احمل حقيبة ، ولكن اثار حملها ظلت واضحة في خشونة يدي. واقتصر بيعي على القادمين الجدد الذين تواردوا من شرق الاردن ، وارباحي كانت حسب رأسمالي، في المئة شيء معلوم ..

وعاد يطرق اذني ما سمعته في « فندق فيرا كروز » البضاعة .. النايلون .. كنزات الصوف .. وسان بورجا التي تركتها غير آسف . ومرة ثانية وجدت نفسي اشعر بالندم ، هذه السياحة ستكلفني مبلغا محترما من المال ، انا في اشد الحاجة اليه في هذا الوقت العصيب . فكل شيء قد ارتفع ثمنه حتى تخطت المصاريف ، المدخول الذي يكسبه انسان مثلي من عامة الشعب ، ومنذ زمن بعيد لم ابعث الى اهلي شيئا من الدراهم. لقد ساءت الاحوال ، وارتفع سعر الدولار الى درجة لم يتصورها عقل ، وكان من نتيجة ذلك ان سئمت الحياة ، وكرهت الغربة ، واستولى علي جمود تشابك مع يأس قاتل ..

بدأت معالم سانت تومي ، تظهر من بعيد ، فنظرت الى ساعتي فاذا هي قد قارب الخامسة ، ثلاث ساعات قضيتها في مقعد ضيق ..وتطلعت من خلال النافذة الصغيرة الى البيوت ، والى المحلات التي كانت تقترب منا ثم تغيب خلفنا بسرعة ، وخفق فؤادي حالما وقفت بنا السيارة، فماذا جئت افعل هنا ؟!. ونسيت انني تائه .. انسان ضائع في مجاهل الارض ، وماذا بعد ، وقد باعتني حكومتي بعشر ليرات ونصف ، ثمن جواز سفر .. لنا قناصل في المغترب ، اعتمدتهم الحكومة لاجلنا ، قناصل يأبون التعرف علينا ، ويشمئزون لكوننا نجيد اللغة العربية.. ومنهم من عصرتهم الارض ، فولدت في نفوسهم مركب النقص، فاذا ما تطلعنا اليهم لمحنا سرابا كثيفا يحيط ابراجهم العالية..

اخذت اتجول في شوارع المدينة ، اقطع الوقت بالتفرج على واجهات المحلات .. اسعار كلها رخيصة ، استطيع بيعها باضعاف

ثمنها اذا ما حملتها الى قرى البرازيل ومدنها .. لا ادري لماذا تزداد الاسعار في البرازيل يوما بعد يوم ..

بدأت افواج الغرباء تخرج من الاسواق والحانات .. هيئاتهم دلت على انهم مقبلون من نواح بعيدة ليبيعوا منتوجاتهم في هذه المدينة .

عرباتهم وقفت صفوفا في ساحة تبدو قديمة ، وان كانت ذات تنسيق بديع .. دواليب العربات ، واقدام الحيوانات ، وأحذيةاصحابها مغطاة بطبقة كثيفة من وحل احمر ، جلبوه معهم من اماكنهم النائية .. كم جميلة هي حياتهم . وقفت برهة اتأمل هذه القوافل الصغيرة في طريقها الى المزارع البعيدة ، لا شك ان في انتظارهم ـ هناك ـ الدفء والحنان .. لقد خلت الساحة من قوافلهم ، كلهم رحلوا في طريق واحدة ، نحو الجنوب ..

اجتزت ثلاثة شوارع ، واذا بي امام حديقة ، جديدة بهندستها وتنسيقها ، تحيطها المقاهي والمطاعم والمحلات .. وكانت الانوار تتلألأ مع جوانبها ، وفي وسطها . اردت الجلوس على احد المقاعد ، ولكن النسيمات الباردة التي عقبت مغيب الشمس . جعلتني ابحث عن ركن دافيء انزوي فيه .

كثير علي بار متواضع ، او مقهى من الدرجة الوسطى ، ولكن ، «كباريه» ما تصورت قط ان قدمي ستقذفانني في لججه .. جلست فوق الكرسي كالحشرة ، متحذرا لمس الخوان الابيض ، ولعل تحذري لا يجديني نفعا ساعة الدفع . لقد اقبل ، يمشي بتأن ، وبين يديه « روشتة » فيها الشفاء من الجوع . نظرت . وبحلقت ، وتمعنت ... واخيرا وقعت على ضالتي « عصير الليمون » . وبكل سرور رفعت اليه رأسي قائلا :

ـ عصير الليمون

فاستفهم مستغربا :

ـ قبل العشاء ؟!.

اللهم عفوك .. كم سيكلفني العشاء في هذا المكان .. فأجبته بهدوء :

ـ انا لا اتعشى يوم الخميس .. يكفيني عصير الليمون ..

امتلأت معد الجميع بالطعام ، ما عدا معدتي التي اخذت تقرقع على الناشف ، كان ينقصها الطعام لتهضم ..

بدأت نثراتموسيقية تتواثب من بين أفراد «التخت» ، يقولون ان الموسيقى غذاء روحي ، ولذلك ساعوض بها عن جوعي . لقد بهتت الانوار ، انقلبت الى نور احمر ، ارتمى فجأة في وجوه الجالسين، فكنا ـ جميعنا ـ اقرب الى «دمى» ، كتلك التي تعرض في واجهات المحال.. انني مغرم في « الموسيقى الاسبانية » هذا التراث المزوج في دمائنا ، وخفق فؤادي ، وغاب الندم الذي تسرب الى نفسي اول دخولي .. انا بحاجة الى شيء يعيدني الى الماضي ، وليس اقرب الي من الغناء الذي يلف ارجاء نفسي . ان ملابسه تضيق حول جسمه .. وما اشبهه بعملاق رفيع ، اقدامه في الارض ورأسه في السماء ، انه يرقص، ويصفق ، ويغني ، فيخلب لب الجميع برقصه وغنائه .

واضيئت الانوار من جديد ، فتلألأت الوجوه ، وتمايل افراد التخت في مقاعدهم بعدما غاب المغني .. فترة استراحة ، تمنيتها لم تكن، اريد ان اشبع نهمي من هذا الغناء الرفيع .

ومرة ثانية بهتت الانوار ، لم تعد حمراء كما كانت .. هي الان صفراء ، كلون الخريف . كم امقت هذا اللون .. ولمعت وسط الحلقة، صبية في عمر الورود ، ارتطمت خدودها في عيني ، فكدت التهمها بنظراتي الحادة .. انها بانتظار العازف لتغني.

وبدأت اغنيتها ، خافتة ، ثم سمت بها قليلا قليلا ، فأحسست بصوتها يندفع نحوي بكل حنانه .. لقد بدأت اغنيتها صافية، كأيام الصيف ، ثم رأيت الخريف ينبثق من بين شفتيها ، هذا اللون الباهت امتزج مع دفء غنائها :

« تي آمو »
كانت أول كلمة همسها لي
ولم يكن يدري انه سيحفرها
في قلبي
وانني
سأحيا على حروفها
« تي آمو »
آخر كلمة ارتجفت بها شفتاه
وكأنما كان يخشى
حروفها
ان تلتهب في صدري
« جوليانا »
اسمي الصغير
رسمه هناك حيث كان هو والليل
والقمر الفضي
الذي ارتمى تحت ظلال الحب
« تي آمو »
أغنية
احملها معي من بلادي
التي تعشق الحب
وترسمه في هياكل النور
قال :
انني سأراه ذات يوم ..
لقد مضى الف يوم
دون ان اراه
انا عطشى
اريد ان اسمع صوته
اريد ان يهمس لي
« تي .. آمو .. جوليانا »

لا استطيع ان احدد الالم الذي انطوت عليه نفسي ، لقد عاد ذلك الماضي حيا الى فؤادي .. كم انا بعيد عن ذلك الحب الذي عشته... ماذا وفر تلي الغربة من هناء ؟. لا شيء .. لا شيء ابدا .. دراهم اعيش بها ليومي ..

وبخفة ، انسللت من الجمع ، بعدما دفعت الحساب ، وسرتاجوب الشوارع على غير هدى .

بيروت

حسين قاسم

صدر حديثا

الوجودية وحكمة الشعوب

تأليف سيمون دو بوفوار

ترجمة جورج طرابيشي

دراسات عميقة عن الوجودية وعلاقاتها بالمجتمع والشعب وأثرها في الحياة عموما

دار الاداب — الثمن ١٧٥ قرشا لبنانيا